

الهمداني لسان اليمن

دراسات في ذكرى الألفية^(*)

تأليف: جماعي

تحرير: د. يوسف محمد عبدالله

عرض: أ.د. حسين عبدالله العمري

قسم التاريخ، كلية الآداب

والعلوم الإنسانية - جامعة صنعاء



في عام 1981م، أشرفت لجنة الهمداني على انعقاد اللجنة العلمية العالمية، بمناسبة الذكرى الألفية لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، شارك فيها كثيرون من المهتمين والمتخصصين والمتشرقين المرموقين، وفي عام 1986م صدرت الأبحاث التي أقيمت في تلك الندوة في كتاب بالعنوان المذكور، وفيما يلي عرض لهذا الكتاب.

أخيراً أصدرت "جامعة صنعاء" للعلماء والباحثين والمهتمين بفكر علامة العرب الكبير وتراثه في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد الحسن بن أحمد الهمداني، كتاباً مهماً عكف على تحريره ومراجعته طباعة فصوله المختلفة باللغتين العربية والانجليزية الأستاذ الدكتور/يوسف محمد عبد الله أمين عام (لجنة الهمداني) التي أعدت للندوة العلمية العالمية بمناسبة الذكرى الألفية (لسان اليمن) التي عقدت في جامعة صنعاء في 21- 27 ذي الحجة عام 1401هـ/19- 25 أكتوبر 1981م) وحضرها وشارك في محاوراتها عدد كبير من العلماء والمتخصصين العرب والمستشرقين المرموقين، ولاقت نجاحاً كبيراً

(*) الهمداني: لسان اليمن دراسات في ذكرى الألفية، تحرير د. يوسف محمد عبدالله، منشورات جامعة صنعاء، 1986،

206ص للقسم العربي، 189ص للقسم الإنجليزي.

لتوافر جهود كل المتخصصين في جامعة صنعاء وأعضاء اللجنة التي أولتها الدولة أيضاً اهتماماً خاصاً، فكان رئيسها الفخري نائب رئيس الجمهورية آنذاك الأستاذ/عبد العزيز عبد الغني، ثم لتجمع ذلك العدد من الباحثين الذين كثيراً ما تاقوا إلى اللقاء في ندوة أو مؤتمر خاص بعلم شامخ كالهمداني الذي لم يلق قبل تلك الندوة ما يستحقه من البحث والدراسة، لتعدد الجوانب والميادين التي أبدع فيها، وكان من أهم نتائج تلك الندوة وفوائدها صدور البحوث والدراسات في هذا الكتاب القيم عن جامعة صنعاء بعنوان (الهمداني لسان اليمـن: دراسات في ذكره الألفية) تحرير الدكتور/يوسف محمد عبد الله، وقد طبعته (دار التنوير للطباعة والنشر - بيروت: 1407 هـ/ 1986م).



تمآثل وآآلاف:

الآآاب - بعد مقدمة مدير الجامعة الشاعر الدكتور/عبد العزيز المقآاح وكلمات افتتاح الندوة - آاء في قسمين:

الأول: (الدراسات بالآفة العربية) وفيه آسع دراساآ أو فصول، أملت على المحرر طريقتة (وهي المآلى) في ترتيبها على الآروف الهآائية وفق أوائل آروف أصحابها في أن آكون (آرآمة الهمداني) آخر آلك الفصول، الآي آآناول كل منها آانباً محدوداً من لسان اليمـن، ولعل الأوجه أن آكون الآرآمة هي أول الفصول آعريفاً ومدآلاً للآآاب، وبآاصة أنها كانت بقلم المحرر نفسه الذي أآآزم الطريآة أو المنهج، منعاً لأي آرج أو سوء فهم لأنه هو المحرر، وقبل ذلك أو بعده لم آكن آلك الآرآمة المضيدة في الواقع مجرد آعريف آقليدي بصاحبها، بل كانت صياآة آديدة لآياة علامآنا الهمداني الآي سنعرض لها فيما بعد.

أما القسم الآاني: فقد آصص للدراساآ الآي سآآآرم إلى الآفة الانآليزية آلاآة عشر باآآاً آلهم من المسآشرقين والعلماء الأآصائيين في الآآافة والآضارة اليمـنية الآديمة والعربية الإسلامية، أمآال المرحوم العالم البروفسور/سرجنآ (آ: 1993)، والمرحوم البروفسور/ألآرد بيسآن (آ: 1995)، وألآبرآ آام، والدكتور/رايآمنز، والأساآذة الألمان مادلنآ، ويوسف فان إس، والروسي بآروفسكي، والانآليزي الدكتور/روبرت ولسن الآي نال آرآة الدكتوراه بعد أن أمضى في اليمـن بضع سنوات مآآبعاً في دراسآة المهمة لأسماء الأماكن في صفة الآزيرة للهمداني، وعن هذا الموضوع كان إسهامه في الآآاب.

لقد رجحت كفه فصول القسم الثاني على القسم الأول، وربما لو تمكن علامة الجزيرة الكبير الشيخ حمد الجاسر المختص بالهمداني وشيخ المؤرخين الدكتور/جواد علي من الحضور والمساهمة، وكذلك لو كتب بالعربية البروفسور/عباس الهمداني نجل المرحوم المؤرخ حسين فيض الله الهمداني إسهامه القيم "الهمداني في بداية سلطة همدان على اليمن"، لكان القسمان مناصفة، بيد أن هذا الاستطراد لا علاقة له بفحوى تلك الدراسات وأهميتها، فالقسم الثاني مكمل لدراسات القسم الأول، والعكس صحيح، ومن ذلك مثلاً ذلك المبحث الذي عقده الباحث العام الدكتور محمد عبد القادر بافقيه عن (الهمداني والثامنة) الذين "لا يصلح الملك لمن ملك حمير إلا بهم...." يكمله من جانب آخر أول دراسة القسم الثاني للبروفسور/بيستن عن (الهمداني والتبابعة)، والأمر نفسه مع فارق في التحليل والتوسع المرجعي في تناول الدكتور/رضوان السيد لموضوع مهم شائك طالما جر على صاحبه المحن والخطوب ذلك هو (القحطانية واليمانية عند الهمداني)، ففي القسم الثاني مبحث للمستشرق بيتر وفسكي بعنوان (الهمداني والأخبار القحطانية) وتضي دراسة الدكتور/يوسف فان اس (أستاذ الدراسات العربية والإسلامية بجامعة توينجن الألمانية) المعنونة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الفكر السياسي للهادي) أهمية خاصة في هذا القسم لكونها دراسة في الفكر السياسي في العصر الذي نشأ فيه الهمداني وعاصر - صغيراً - تأسيس الهادي يحيى بن الحسن (ت 298 هـ - 910 م) للمذهب الزيدي في اليمن، ثم محنته بالسجن أيام الناصر أحمد بن الهادي (ت 325 هـ - 937 م) لوضعه كتابه المشهور (القصيدة الدامغة) التي عارض بها قصيدة الكميت بن زيد الأسدي (ت 126 هـ - 743 م) ورد فيها على من كانوا يتعصبون على قبائل اليمن.

ومثال أخير للتشابه والتكامل بين دراسات القسمين تلك الدراسات المتعلقة بأحد حقول الهمداني التي أبدع فيها - أعني (الجغرافيا) - ومن أحسنها بحث الدكتور/عبد الله الشيبة عن (أهمية الهمداني للجغرافية التاريخية لليمن القديم) الذي استهله بقول المستشرق النمساوي شبرنجر (ت 1893 م) قبل أكثر من قرن وربع قرن من أن "صفة الجزيرة إلى جانب كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) للمقدسي يعدان أهم عمليين جغرافيين قدمهما العرب".

وهكذا نجد أن مختلف فصول القسمين يكمل بعضها بعضا، غير أن قيام جامعة صنعاء بنشر بحوث القسم الثاني باللغة الانجليزية "دون ترجمة أو تلخيص نابع من الحرص على التوثيق، ونقل الصورة كما كانت. والجامعة تنوي في الوقت القريب ترجمة هذه الأبحاث إلى اللغة العربية، ونشرها في كتاب مستقل "كما ذكر الدكتور المقالح في تقديمه، فلعلها تفعل ذلك قريبا وفي طبعة قادمة تحوي القسمين معا، فتيسر بذلك للباحثين والقراء العرب الاطلاع على أول دراسة شبه متكاملة عن لسان اليمن وأحد عباقرة العروبة والإسلام.



الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، أبو محمد، لسان اليمـن، عالم، مؤرخ، جغرافي، فيلسوف، شاعر، سياسي، ولد بصنعاء في (19 صفر 280هـ/ 893م) وبها نشأ، طاف البلاد و الجزيرة العربية، واستقر بمكة أكثر من ست سنوات حين كان في الخامسة والعشرين من عمره بغرض العلم والتحصيل، ورغم تعرضه "لأذى حرمكة وهجيرها إلا أنها - فترة مكة - كانت من أخصب سني التحصيل لديه، حيث تفتحت له آفاق المعرفة، وانفتح له فيها باب نفيس من المنطق فازداد منه" ثم عاد إلى اليمن وبقي بصعدة، قاعدة أئمة الزيدية والمحطة الهامة على طريق التجارة الممتد من أقصى جنوب اليمن عبر مكة إلى بلاد الشام، وكان لاستقرار أوضاع صعدته السياسي والاقتصادي - بعكس صنعاء التي كانت نهباً لأكثر من قوة سياسية آنذاك - أهمية خاصة جعلتها "تستقطب كثيراً من العلماء والأدباء والشعراء وطلاب العلم، وكذلك التجار من داخل

اليمن وخارجه، فقامت فيها حركة أدبية وفكرية، وانتعشت فيها التجارة، فكان أن أفاد الهمداني من فنون العلم التي كانت تزخر بها، كما أسهم فيها بنصيب وافر، لاسيما في علوم الأخبار والأنساب والشعر.... وهكذا مال الهمداني إلى الاستقرار بصعدة "وعمر فيها داراً وامتلك عقاراً واستطاب المقام بها" كما ينقل لنا المحرر عن الهمداني.

بيد أن شخصية كالهمداني ما كان يمكنه أن يعيش خاملاً أو في دعه وسكينه، فقد قضى شبابه منذ استقر في صعدة ثم كهولته، ليس في محراب الفكر والتأليف فحسب، بل كان له مع رجال عصره من حكام وأمراء وعلماء وشعراء شأن وأخبار وصراع كثير، بلغ ذروته بمحنته الكبرى بقيده وسجنه في قصر صنعاء على يد أميرها أسعد بن أبي يعفر الحوالي بأمر إمام صعدة الناصر أحمد بن الهادي يحيى بن الحسن، واستمر سجنه ومعاناته واحداً وعشرين شهراً و19 يوماً، بين 24 شوال سنة 319 و27 شعبان سنة 321هـ، لكنه "لم يبلغ مأمنه بعد إفلاته من حفظته في الطريق، ثم اختبأه إلا في حوالي 17 ذي القعدة من عام 321هـ"، ويرجح بحق الدكتور/يوسف محمد عبد الله أن مأمنه كان مدينة ريده من بلاد قاع البون على بعد 100 كم شمال صنعاء، وفيها قضى الهمداني شيخوخته وبقية عمره (ص196) عاكفاً على مؤلفاته وكتبه التي لم يصل إلينا إلا بعضها، ومن الغريب أن يكون تاريخ وفاته غير معلوم على وجه اليقين، بيد أن التاريخ الشائع الذي ذكره صاعد الأندلسي (ت462هـ/1070م) في كتابه (طبقات الأمم) وهو عام 334هـ لم يعد صحيحاً، وقد سبق للمؤرخ المحقق القاضي محمد الأكوع أن نبه على ذلك. وهو ما ناقشه العلامة حمد الجاسر في مقدمته النفيسة لطبعة الأكوع (صفة جزيرة العرب) عام 1974م، وعاد إلى بحثه الدكتور/ يوسف محمد عبد الله في آخر ترجمته للهمداني حيث رأى بعد عرضه لكل ما سبق من افتراضات وتخمينات "أنه عاش إلى ما بعد 334 وربما بعد 336هـ بسنوات أيضاً، لكن ليس هناك دليل قاطع بذلك (الكتاب ص:198). ولقد أفاد الدكتور/ يوسف محمد عبد الله كثيراً بترجمته الجديدة التي أعاد فيها صياغة المعلومات المبتورة عن حياة العلامة الكبير مستفيداً بشكل خاص من المقالة العاشرة من كتاب (سرائر الحكمة) للهمداني المفقود التي نشرها العلامة الأكوع قبل نحو عشر سنوات، والتي أماطت اللثام عن معلومات وأخبار ذكرها الهمداني عن نفسه، بعضها في معرض وضعه تطبيقات لعلاقات البروج والقرانات

الفلكية التي يتناولها في تلك الرسالة اليتيمة الهامة، كتحييده تاريخ مولده (الذي لم يكن معروفاً)، وذلك ".... يوم الأربعاء 19 من صفر سنة 280 لعشر ساعات مستوية من النهار.... يكون الطالع من الميزان احد عشر جزءاً ونصفاً بالتقريب...." ثم يضيف في نص الرسالة تحقيق ما ظهر من دلائل الطالع، وهو أن المولود يصاب بنكبتين عظيمتين من الأعداء، ثم يؤرخ لإحداهما بيوم الثلاثاء، يوم أحد عشر من رجب من سنة 315هـ، وثانيتها "بيوم الاثنين من شهر شوال سنة 319هـ" (ص187) ويذكر لنا الدكتور/يوسف محمد عبد الله في هذا الصدد أن الدكتور/أوسكار لوفجرن أستاذ الدراسات السامية بجامعة أوبسالا السويدية قد نقل عن القاضي الأكوع التنويه بتاريخ ميلاد الهمداني، لكن لم يتسن له الإفادة من المقالة المذكورة حين كتب مادة (الهمداني) في دائرة المعارف الإسلامية الانجليزية. والدكتور/لوفجرن قد ساهم في الواقع بدراسة في القسم الثاني من الكتاب بعنوان (اكتشافات لثراث الهمداني).



الخسارة الفادحة:

إن الخسارة الفادحة في ضياع كثير من أعمال الهمداني لا يعادلها أي خسارة، إلا ضياع أو فقد أعمال ومؤلفات لعظماء آخرين أمثاله من أعلام أمتنا الذين أسهموا ببناء ذلك النسيج الحضاري العربي الإسلامي المبدع الذي كان جسراً وضوءاً هادياً للإنسانية في طريقها إلى عصر النهضة عبر ظلمات الغرب فيما يسمى بالقرون الوسطى، ولقد كان - وما زال الأمل قائماً عند الباحثين والعلماء - في العثور على بعض مؤلفات الهمداني المفقودة أو أجزاء منها، وذلك على الرغم من أن مؤرخاً مثل القفطسي (ت 626هـ/ 1229م) قد أشار في (إنباه الرواة: 283/1) وقبل قرابة ثمانية قرون إلى أنه من المتعذر وجود نسخة كاملة لأهم مؤلفات الهمداني (لسان اليمين)، كتاب (الإكليل) الذي يحتمل أن بعض أجزائه الستة المفقودة قد أحرقت من قبل بعض القبائل للمثالب والخلافات القبلية التي أشرنا إلى بعضها، ومع ذلك فبعد العثور عليها ونشر الأجزاء الأربعة المعروفة (1 و2 و8 و10) مازال أمل الباحثين والمهتمين في العثور على أي جزء من الأجزاء الأخرى قائماً، شأنها شأن بقية أعماله المفقودة.

لقد كان الهمداني أبرز رجال عصره في اليمن، وأحد عظماء العرب في ذروة الحضارة العربية الإسلامية، وقد نقل لنا المحقق القاضي/ محمد الأكوع في موضوعه عن (أوليات الهمداني التي انفرد بها) ما ترجمة المؤرخ اليمني الكبير/ محمد بن الحسن الكلاعي الحميري (ت 404هـ/ 1013م) الذي كان من الجيل التالي بعد الهمداني، وله كتب لا يعلم بعد وجودها، مانصه:

"كان الحسن بن أحمد الهمداني الأوحـد في عصره، الفاضل على من سبقه، المتبرز على من لحقه، الذي لم يولد باليمن مثله علماً وفهماً ولساناً، ورواية وإحاطة بعلوم العرب من النحو واللغة، والغريب والشعر، والأيام والأنساب، والسير والأخبار، والمناقب والمثالب، مع علوم العجم، والهندسة، والاستنباطات الفلسفية، والحكام الفلكية" (ص111).

وحتى تكتمل صورة الهمداني في هذه العجالة نختمها بشهادة مستشرق عظيم عميق المعرفة، متعدد المواهب، هو العلامة الروسي كراتشكوفسكي (1883- 1951م) الذي رسم لنا شخصية الهمداني "من وجهة نظر استشرافية محايدة" كما وصفها الدكتور/المقـالـح في مقدمته المركزة، فقد جاء في كتاب (تاريخ الأدب الجغرافي عند العرب) لكراتشكوفسكي عن الهمداني:

"وفي مصنفاته ترسم أمام ناظرينا فذة لوطني متحمس، بل خبير كبير بأنساب العرب وتاريخ الجزيرة العربية نفسها، وبخاصة آثارها القديمة، وهو أمر نادر بين العرب، ومما يدعو إلى الدهشة حقاً أنه استطاع فك رموز الكتابة العرب (الحميرية) القديمة في جنوب الجزيرة، ويقف مصنف الإكليل الذي يقع في عشرة أجزاء دليلاً ساطعاً على سعة معارفه. فقد أفرغ فيه جماع معرفته بالأنساب والتاريخ والآثار، بل حتى لأدب الحميريين سكان الجزيرة في القدم. ولم يكتف في كتابه بعرض المادة الأسطورية التي تجمعت في الأدب العربي بعد الإسلام، بل بذل قصارى جهده ليقف منها موقف الناقد، وذلك على ضوء دراسته للنقوش التاريخية".

ذلك هو لسان اليمن، في ذكره الألفية التي يكون صحيحاً بعد مرور 1125 عاماً من مولده أو 1071 عاماً - تقريباً - من تاريخ وفاته غير المؤكد، نُضيف إليها ثلاثين عاماً هي الفارق بين ذلك المؤتمر في ذكره الألفية وهذا المؤتمر الثاني بمناسبة الذكرى الأربعين لتأسيس جامعة صنعاء الحفيلة اليوم بذكره العظيمة عازمة على إعادة نشر ما سبق وما سيُقدم في هذا المؤتمر في أقرب فرصة بإذن الله.